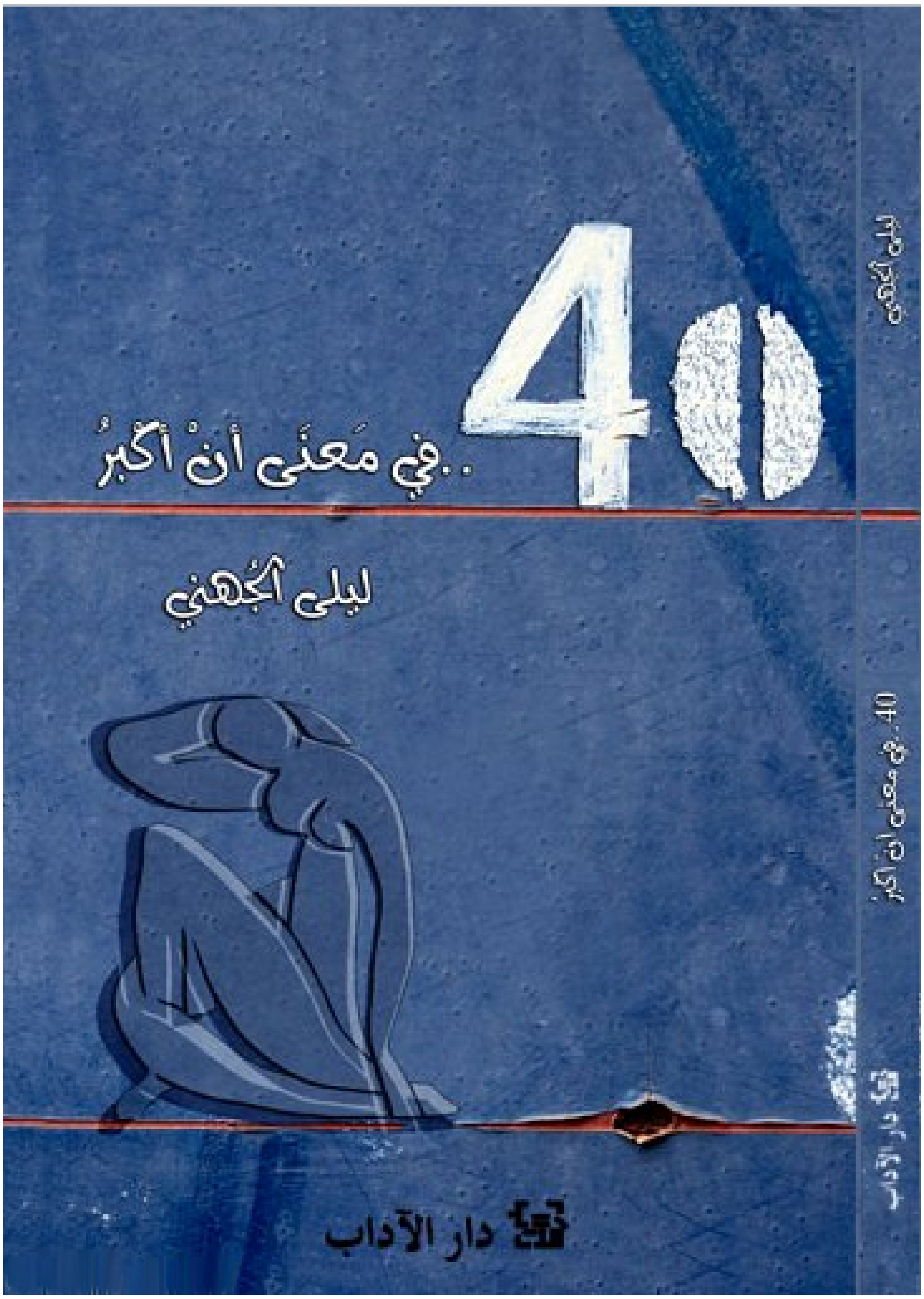

40
.. في مَعنَى أنْ أكْبرُ
ليلى الجُهني
دار الآداب
ليلى الجهني
40 .. في معنى أن أكبر
دار الآداب

ليلى الجُهني

٤٠
...... في مَعنَى أن أكْبُر

دار الآداب – بيروت

{ حتى إذا بلغ أَشُدّهُ و بَلَغَ أربعينَ سنةً
قال رَبِّ أوْزِعنْي أن أشكُرَ نعمتك
التي أنعمتَ عليَّ }
[الأحقاف : ١٥]

- 1 -

إنني أكبر ومع ذلك فإن كتابتي هذه ليست عدًا لأعوامي ولا إحصاءً لها . لقد أدركت – غير متأخرة على ما يبدو – أن قيمة وقتي فيما عرفته وأعرفه وسأعرفه عني وعن العالم من حولي ، وأن انشغالي بإحصاء السنين سيحرمني فرصة أن أعرف جديدًا ، وكل ما أحياه الآن هو نهم أن أعرف . لم أعد أريد شيئًا غير أن أعرف أكثر ، كي أعي مبلغ جهلي الفادح ، فأحزن أكثر مما حزنتُ . إن الذي يعرف ينأي أكثر فأكثر عن صخب السطح وضجيجه ، يغور وحيدًا ، وقد يفزع أجل من يعرف لا يؤذِ ، لأن الإيذاء خسارة في الروح . ، وقد يتوحش ، وقد يألم ، بل إنه سيألم ، لكنه أبدًا لا ولن يؤذي والوقت ، ولأن الإيذاء ضعف ، ولأن الإيذاء هزيمة متأخرة ، ومن يعرف لا يحب أن يخسر ، ولا أن يُهزم . إن الذي يعرف كذلك قادر على اصطناع بهجته الخاصة فوق رمل يرتعب من الحياة حين تتوق إلى التعبير عن نفسها . قادر على أن يعذر ، وأن يمضي إلى الأمام ، فإن التفت فإنه سيلتفتُ لأن الحنين ينمو مع الوقت ، ولأن التفاتة إلى الوراء لا تعني وأنا لا أريد أن أعبر دون أن – حينئذ – أكثر من سلام العابر للعابر ؛ وجُل الحياة – حينما أتأملها – عابر يُحيّي عابرًا ؛ أعرف كل ما يمكنني أن أعرفه .

-2-

إنني أكبر . ما كتبته في العشرين لا يشبه ما أكتبه الآن ، وما أفهمه الآن من : شرق المتوسط ، ليس ما فهمته منها ما أريده لم يعد خفيفًا ومقبولا ، بل . عندما قرأتها أول مرة ، قبل أعوام طويلة خلت ، كما أن رد فعلي إزاءها يختلف أثقل على الخلق من أن يُحتمل أو يُغتفر : أن أترك لصمتي ووحدتي في معظم الأوقات . أحلامي صارت ثقيلة وغريبة ومليئة بالتفاصيل والألوان والحرارة والحروب والملامس المتباينة ، وبعضها يشبه لوحات فنية ضخمة . عيناي غائرتان لطول ما قرأت وأوجعتني المعرفة . نَفَسي أبطأ وأبرد مثل نَفَس حيوان بريّ في سباته الشتوي ! يدخر طاقته لأيام من خديعة الأمل . – سيحتاج فيها لكل ما لديه . صرتُ أقل حزنا وقلقا ، وأكثر سكينة ، ربما لأنني نجوت كما أظن – وجهي صار أجمل مما كان عليه قبل أعوام ! عَلّته تلك الهالة الغامضة التي تعلو الأشياء عند بلوغها نقطة تمامها ، أو اقترابها منها . صرتُ خارج أشياء كثيرة ظننت أني لن أصير مرة خارجها ، أولها : الانتظار . ما عدت أنتظر ، وقد ربحتُ بهذا نفسي ووقتي وطاقة بددتها من قبل على أمور وأناس لا تستحق .

–3 –

إنني أكبر و وأبلغ أربعيني دون طفل و ومع ذلك فإن اسمي لن يمّحي كما تظن نُسوة كثر حولي ، وحياتي لن تفضي إلى خواء . ما أنجبته عصي على الموت ، وكل ما أعرفه عن الحياة جعلني أدرك أن الخلود حلية من يعي لا من يتكاثرْ . وفوق هذا فإن حياتي ملأى ، أجل ملأى حتى لو ظنت نسوة ، أو أردن أن يعزين أنفسهن بأنها غير ذلك . كنت قد انشغلت فترة بأن أبرر لهن ولغيرهن سبب عزوفي عن الإنجاب ، ثم أدركت أني كمن يسبح في ماءٍ بارد ، أبذل مجهودًا جبارًا كي أبلغ ضفة غير أكيدة ، وأن هؤلاء النسوة ومن يفكر بطريقتهن لا يعين أنفسهن كما أعي نفسي ، ولا يرين العالم من زاويتي ، فقررت أن أبتسم فحسب ، وأن أحاول أن أفهم كيف تعي النسوة أن الإنجاب شيء جاد ، ثم يتعاملن معه بخفة ؟ وأن أفهم ما المغري في عناء الأمومة ؟ وأن أفهم كيف تظن امرأة أن كل الأبناء عمل صالح ، يمكن أن تدخره لأيامها الأخيرة فتردد بيقين فادح : " جيبي لك سند يشيلك لمّا تكبري " ؟ أنا لم أعرف كيف أجعلهن يدركن أني مفزوعة من مصيري ، وأني أشعر أن الحياة بالنسبة لي ورطة لا ينبغي أن أوقع مخلوقًا فيها إلا إن رغب . وما دمت لا أملك أن أسأل جنينًا – قبل تخلّقه في رحمي ، وقبل أن يعي– إن كان يرغب أن يولد أم لا ؛ فليس في وسعي إذن أن أورطه وأتورط معه . وليس في وسعي الآن ولا غدًا ولا في أي وقت أن ألج فردوس الأمومة الهش . بلى ، الأمومة فردوس هش لأن عقوق ابن قد يجعله ندمًا ، ومرض ابن قد يُصيّره عذابًا ، وموت ابن سيحيله إلى جحيم ، ثم هناك السهر والقلق واستنزاف الروح والجسد ، والخوف من الإفراط أو التفريط ، والقرارات التي ستطلع في منتصف طريق ما ، وسيكون لزامًا اتخاذها ، وهناك كذلك الفكرة التي تمضُني عندما تمر ببالي – ربما بدافع من أنانيتي– فكرة : حياتي مع طفل لن تغدو لي ، ولن تبقى – على أهون حال – ما كانته قبل مجيئه ، وأني سأغدو مكرسة من أجل العناية والحماية والرعاية ، وسأصبح أقل شجاعة وأكثر تحفظًا ، وسأحنقُ في مرات وأنا أهجس بأن

حياتي لم تعد لي ، وقد أغدو مع طول الحنق أمًا سيئة ، وهذا ما لن أغفره لنفسي . ولأني أظن دائمًا أن الناس لن تفهم هذه الأفكار ، فقد كففت منذ وقت أن أبررها وأبرر نفسي لأحد . ما عاد يعنيني أن يفهم أحد اختلافي أو حتى يتقبله ، ليس يأسًا بل لأني أدركت أن الفهم الذي أنشده عصي على الأقل الآن ، وفي هذه اللحظة . ومادام عصيًا ، فليس من الجيد أن أستنزف طاقاتي في استجلابه ، لأن معظم الناس لا تفهم إلا ما تعرف ، ويُربكها الاختلاف .

- 4 -

إنني أكبر ، وتكبر معي أشياء كثيرة أولها : الألم . كلما كبرت صار الألم أكبر وأبطأ رحيلا ! ظننت مرات أني موعودة بالألم ، وحاولت أن أفهم لمَ كان عليّ أن أكبر في ظله ، لكنني أدركت فيما بعد أن الألم شرط إنساني ، وأنّ ما من إنسان إلا وهو مخلوق في كَبَد ، وأن حظي – يا للأسى – سيكون دائمًا كبيرًا لأن قدر الواعي أن يألم مرتين : مرة , وسينال حظه من الألم ، كَبُرَ ذلك النصيب أم صَغُر لأنه يعي ، والأخرى لأنه وحيد ! وأغرب ما أدركته أنني – رغم ألمي – فإني لا أرغب في أن أستبدل حياة أخرى بحياتي . ما الفائدة من أن أحيا حياة أخرى بكل تكاليفها المبهظة ؛ ذلك لأن أي حياة أخرى ستكون حياة بكل تبعاتها وألمها وخيباتها وفرحها العابر وأساها وهشاشتها ؟ ما من حياة هينة ، وما من حياة بسيطة أو تافهة ، كل حياة معقدة بطريقتها الخاصة . أجل ، أنا لا أرغب في استبدال حياتي ؛ لكنني أرغب في أن أحيا تجارب بعينها فحسب . ربما لأنها ستثري حياتي ، ستضيف لها معنى يغيب عنها الآن ، ستجعلها أعمق مما هي عليه الآن ، لكنها أبدًا لن تحمل تغييرا جذريًا لكل هذه الأعوام الطويلة التي أسحبها ورائي ، والتي اسمها : حياتي .

- 5 -

إنني أكبر ، وأوشك على بلوغ الأربعين ، وسيكون هذا الكتاب – إن صدر– كتابي الثالث . كان كتابي الأول قد صدر وأنا في السابعة والعشرين ، وقد سبقته عناقيد الغضب . أما كتابي الثاني فقد صدر وأنا في السابعة والثلاثين وقد سبقته أمطار الصيف . ربما ستسبق حرب ما كتابي هذا ؛ لأنني – كما أدركت منذ وقت – أكبر في ظل الحروب ، وقد وسم الخراب كل عشرة أعوام من عمري بطريقة لا يمكنني إغماض عينيّ عنها . عاصرت ثلاث حروب غيرت العالم من حولي ودارت كلها قريبًا مني ، على ضفاف الخليج : الأولى بين العراق وإيران ، والثانية عقب اجتياح العراق للكويت ، والثالثة عندما اجتاحت أمريكا العراق . في الأولى كنت طفلة ، أذكر أكثر ما أذكره مذيع نشرة الأخبار وهو يعلن أن التلفزيون السعودي سيكف عن نقل تفاصيل الحرب الدائرة بين الشقيقتين المسلمتين . في الثانية كنت شابة تبكي ليلة السابع عشر من يناير عام (١٩٩١) دون أن تفهم ما الذي يحدث ؟ ولمَ يحدث الآن ؟ في الأخيرة كنت امرأة على الأعراف ، وحيدة وأسيانة ، تظن رحمة الله قد هجّت بعيدًا ، ولا تدري كيف ستمضي بقية عمرها ، لكنها تود لو تمضي بأقل الخسائر . الخسائر التي تنحت الروح مثل قطرات ماء مالح ، تتوالى لأعوام على صخرة صغيرة ، فتنحتها لا كما ينبغي ،بل كما يحدث.

-6-

إنني أكبر ، وسأؤول إلى موت بطيء ، سأتحلل رويدًا رويدًا ، إن واظبت على العيش أكثر . كان واحدًا من آمالي الكبرى أن أموت في الثلاثين ، أردت وأريد دائما أن أموت تامة ، لا أريد أن أحيا حتى أرذل العمر ، ولا أن أذوي شيئا فشيئًا ، ترعبني تكاليف الكِبَر . الآن وقد فاتني أن أموت في الثلاثين ، فإن الأربعين تبدو تمامًا مثلما قالت أروندهاتي روي : " ليست سنا متقدمة ، وليست سنا صغيرة ، لكنها سن صالحة للحياة ، وصالحة للموت " . إنني أكبر ، وأفكر أحيانا – عندما أحزن – في أيامي الغابرات ؛ يا لأيامي الغابرات ، يا لبسمة أبي التي لم تعد ما كانته منذ أعوام ، فيها من الأسى ما يقتلني في كل مرة أراها فيها أكثر من قبل . يا لصداقات تحللت تحت يا لكتبي التي تتراكم ؛ فيغدو خرابي الجميل معها واااااسعًا وغير قابل . رمل الأعوام التي عبرت ، وتلك التي ستعبر عليّ أو دوني للشفاء . يا لوجه محمود درويش في صوره الأخيرة ، شائخًا إلى الحد الذي تدمع معه عيناي وأنا أفكر في وقع الزمن الثقيل على جسدي ، وفي أن وجهي بعد أعوام سيشيخ كوجه درويش ، وإن لم أمت الآن ، وفي أني سأفكر حينها في كل خيباتي وهواجسي وما قلته وما لم أقله ، وما فعلته وما لم أفعله ، فلا أتعزى عن شيء أو أحد و لأن ما خسرته سيكون دائما أكثر !

- 7 –

إنني أكبر ، وأميل إلى الصمت أكثر فأكثر . صارت تمرضني فكرة الكلام كلها . لم يكن الكلام سلواي في يوم من الأيام ، وقد عرفت مبكرة أن بإمكاني أن أحيا أياما طويلة دون أن أقول شيئا ، ودون أن أشعر بأن شيئا ما ينقصني . إن الصمت نعمة هائلة مسلوبة منا . أحيانا عندما أستيقظ من النوم ، ثم أطفئ المكيف ، أغمض عينيّ ، وأستسلم لصمت غرفتي ، وأشعر كما لو كنت لم أع بعد . أشعر كما لو كنت أسبح في محيط من عماء أبدي ، حيث لا شيء يرف حولي غير الماء و ومن فوقه العرش . أفكر في أننا نولد من صمت و ونؤول إلى صمت ، لكننا لا نفهم إلا متأخرين أن ضجيجنا وصخبنا ليس أكثر من رفة جناح عابرة . وأنا ما عادت تغريني رفة الجناح ، ما عدت أريد غير الصمت . الصمت الذي ربضتْ في كنفه الخليقة دهورًا قبل أن يخلق الله آدم وحواء ، الصمت الذي تسبح فيه – دون قلق – كل الأرواح التي انعتقت من قيد أجسادها ، فغدت خفيفة لينة غير عابئة بأن تُرى أو تُجرح أو تمرض أو تُعذب أو تحترق أو تُهان . تمضي حرة موقنة بأنها لم تعد قابلة لأن تُمس ، ولم يعد ثَمَّ ما يجعلها عرضة للألم . تلاشى الجسدُ ، وانطلقت هي إلى صمتها القديم ، إلى جنة غادرتها وتعذبت طويلا قبل أن تعود إليها .

- 8 –

إنني أكبر ، ويكبر العالم معي ، وأكذب لو قلت إنني قادرة على أن أفهمه بصورة أفضل مما كنت في العشرين مثلا . بل إن أغرب ما أفكر فيه الآن أني كنت أفهم العالم حينها أفضل ! كان عالمًا أقل تعقيدًا وضياعا مما هو عليه الآن ! وكان يمكن للمرء إن أراد أن يتخذ جانبًا ضد جانب ، أو على الأقل هذا ما أظنه . العالم الآن يتهتك أكثر فأكثر ! يصبح عالما خليعا ، وينحدر نحو رُخص بيّن . عالم يمكن للمرء فيه أن يعرف كثيرًا عن أي حدث حوله ، ومع ذلك فإنه قد يجد نفسه حائرًا في نهاية المطاف ومتشظيًا ؛ لأن كل ما يُطرح يبدو صحيحًا . لم تعد المعلومة شحيحة ، بل فائضة إلى حد يثير البلبلة . عالم مُزر هو عالمي ، عالم غير آمن ، وغير مفهوم فيه لمَ يبدأ أمر ولمَ قد يستمر أو ينتهي ؟ ولمَ يصبغه العنف المبتذل الذي لا مبرر يسوغه ؟ العنف الذي يملأ البيوت والشوراع والمدارس والملاعب ؟ العنف الذي له شكل كلمة ، أو سكين ، أو مسدس ، أو مبيد حشري ، أو قيد ، أو مقطع بلوتوث ، أو مكيدة أو قنبلة ، أو بقعة نفط ، أو آلة عسكرية ضخمة تسحق بشرا لا حول لهم ولا قوة ؟ ما قيمة الحياة إزاء هذا العنف ؟ ما قيمتها والعنف يضحك بالليل والنهار ، ومن أشداقه تسيل حيوات كان كل ذنبها أن طرقها تقاطعت لمرة واحدة وأخيرة مع طريقه ؟

- 9 –

إنني أكبر ، وأفكر في أنني أقترب من الموت ، لكن الموت لا يقترب لأننا نكبر ولا يبتعد لأننا صغار . الموت موجود ، ونحن لا نذهب إليه ولا نعود منه . هل نسيت خالدًا ؟ لقد مات قبل أن يكبر بكثييير . أحيانًا أتخيله وهو يسبح وحيدا في الماء تحت عرش الرحمن ، فأحزن حزنًا غريبا وغير مفهوم . غرق خالد لأنه لم يعرف أن يسبح في ماء الدنيا ، فغاص حتى انتفخ ، وعندما انتشلوه كان قد مات ، دون أن يتناول عشاءه – هكذا قالت أمه – ودن أن يتم الثامنة بعد . قبل أن يموت بليلتين أو ثلاث حلمت أن سنا من أسناني قد سقطت ، وبعد أن مات صرت أفكر في أنه وحيد ، وأن وحدته لا برء منها ، لأنه دُفن في أرض لم يُدفن فيها أي من أسلافه ، وقد غادرها أهله بعد موته ، وصرت أفزع من أن أموت في مكان ناءٍ فأدفن هناك ، ثم أفتح عينيّ على وحدتي العصية . ظللت لفترة أتخيله هائما في برزخه ، يبحث عن وجه يعرفه أو يألفه على الأقل . أمضتني فكرة أنه لن يجد من يأخذ بيده ، ويجعله يفهم ما حل به . وأمضّتني أكثر فكرة أنه قد يبقى وحيدًا تحت تلك الأرض إلى يوم يبعثون ، لأن أحدا من أهله لن يُدفن هناك .

- 10 -

إنني أكبر ، وأتورط في سحر الكتب والقراءة أكثر فأكثر . لم تعد القراءة بالنسبة لي متعة بل غريزة كالجوع تمامًا ، ومنذ وقت بعيد أدركت أن لا شي يمنحني الأمان مثل أن أجد نفسي بين الكتب . دائمًا ، عندما ادخل أي مكتبة ، أشعر بأنها مكان آمن كي أحيا فيه طويلا ، أو حتى أُنسى . لن أخسر أحدًا أو شيئًا ، ولن يخسرني أحد أو شيء ، ولن أكون مضطرة لتمحيص كل الأفكار التي سأقرؤها قبل أن أسلِّم بها ، سأقرؤها على الورق ، وستبقى على الورق ، ولن أشعر بالخيبة إزاء الوعي أو اليقين أو الخوف من الفشل ، سيكون كل شيء آمنا كما ينبغي لنعيم أن يكون . يا إلهي لعل أسوأ ما في وعيي أن أعي خرابي ، وأن أعي رغبتي في أن يكون تاما لا شية فيه ! لكنني لا أستطيع ، ولا أرغب في أن أكون غير ما أنا عليه هكذا خلقت و وهذا ما أصلح له : أن أعي العالم وأتعامل معه من خلال كتاب .

- 11 –

إنني أكبر ، وأزداد مرضًا بخصوصيتي . لم أعد أطيق أن أُقتحمَ بفجاجة ، ولأسباب أشد فجاجة . أتذكر ما شعرتُ به عندما وصلني رابط إلكتروني لصورة قصر الأميرة ريم بنت الوليد . كان قد وصلني عبر الإيميل دون تعليق أو أيقونة . نقرته فانفتح عن الصور ، وكان يمكن أن لا يحدث شيء ، لكن شيئًا حدث على نحو غامض حتى بالنسبة لي : كنت أتابع الصور ، دون أي شعور خاص ، وعندما وصلت إلى غرفة نومها ، شعرت بما قد تشعر به امرأة قدّت ثيابها من دبر بغتة وسط جمع ، ولم تتمكن من تدارك انكشافها وعريها المخزي أمام الناس ، وعيت بطريقة أزعجتني أنني مريضة لأمرضني أن تُنتهك حميميتي بهذا القدر ، أن يطلع أناس لا أعرفهم ، في أمكنة لا بخصوصيتي ، وأنني لو كنت مكانها أدري عنها ، على لون لحافي ، وأن يعرفوا شكل سريري و وأن يتخيلني أحدهم – ربّاه – مضطجعة عليه آمنة ، غافلة عن أن ثَمّ من يتخيل شكل اضطجاعتي تلك . شعرتُ بحزن غامض تجاهها . حزن لن يعنيها ، وربما ضحكت إن عرفت به وهي تقول : " مشّي حالك " . لكنني سأكون عاجزة عن " أمشّي حالي " ، ولن أعرف – ربما – كيف أتجاوز الأمر .

-12 –

إنني أكبر ، ونومي يضطرب أكثر من ذي قبل . منذ العاشرة ونومي مضطرب . حينها كنت أرفض فكرة النوم ، وأعدها خسارة ، وكنت أفكر أن ثَم أشياء ستفوتني إن نمت . الآن كذلك أتهرب منها أحيانًا ، وأعدها خسارة أكثر فداحة ! لكن جسدي لم يعد شابًا ، ومع الوقت سينهكه السهر المتواصل . عندما أرسلت لصديقة أخبرها : " لا أنام " ردت علي : " أرقُ إدوارد سعيد .... " وها قد مضى إدوارد سعيد إلى نومه الطويل ، فهل علي أن أنتظر أن أموت كي أنام بعمق ؟ توقظني أحلامي وكوابيسي أحيانًا ، وفي أحيان أخرى توقظني أفكاري ، ويوقظني أن أهجس بمصيري ومصائر أحبتي ، وكم يرعبني أن أفكر بمصائر من أحبهم ، في الموت الذي قد يأخذهم ، في المرض الذي قد يلحق بهم ، في الخيبة التي قد تفتت قلوبهم ، في العجز الذي قد يقعدهم . وأعرف ليس بيدي أن أمنع عني وعنهم ما ينتظرنا ، لكن ليس بيدي أن لا أهجس بكل ذلك فلا أنام .

- 13 –

إنني أكبر ، وأفكر في أنني قد حصلت على أشياء كثيرة ، غير أن ذلك لا يعني أنني حصلت على كل ما أردته ، أو أن كل ما حصلت عليه كان مما أردته . ثَم أشياء أردتها بشدة ، غير أنني لم أنلها فحاولت أن أتصبر عنها ، وثَم أشياء نلتها لأنها جاءت وليس لأنها ما أردته ، وأحاول دائمًا أن أشكر الله عليها ؛ وفي مقابل كل ما أردته ولم أحصل عليه ، وما حصلت عليه رغم أنني لم أرده نمّيت يقينًا لا أريد أن أحيد عنه بـــ : أن الله عادل ، لكن الحياة غير عادلة . الحياة ليست مكانًا للعدل ، بل لاختبار حِسّنا تجاهه ، أو على الأقل هذا ما استخلصته مما مر بي ، وفي هذا الاختبار كنت كغيري من الناس : أصيب في مرات ، وأفشل في أخرى ، وأبتهل إلى الله كثيرًا أن يكون فشلي عن جهل لا عنت . لقد أدركت مبكرة أن قيمة ما نناله وما نُحرم ليست في الأشياء نفسها ، بل في الطريقة التي نتعامل بها مع تلك الأشياء ، نعمة كانت أو ابتلاء . وإذا كنا نعي دون جدل أن الابتلاء ثقيل ، فإن قلة يعون أن النعمة – كالابتلاء – ثقييلة ، وأن شكرها أثقل من الصبر على ضدها !

- 14 -

إنني أكبر ، وليس بيدي أن لا أفعل . كل ما بيدي وأنا أكبر أن أعي كيف ينحتني هذا الكِبر . ما الذي يأخذه مني ؟ وما الذي يضيفه عليّ ؟ وأين سأجد نفسي عندما ينتهي الدرب ، وترف الملائكة بأجنحتها من حولي ، ويصير ما أعيه خارج الكلمات وأكبر منها ؟ وكم سأخسر حينها أنا التي آمنت أن الحياة خسران طويل ؟ أفكر الآن في موتي لأني أفكر دائمًا في بقائي ، وقد يبدو الأمر متناقضًا لكنه ليس كذلك . أن نموت لا يعني أبدًا أن لا نبقى ، وفي الوقت نفسه ، فأن نبقى لا يعني أبدًا أن نكون موجودين . كلنا موجودون لبرهة من الوقت طالت أم قصرت ، لكن قلة منا يبقون إلى الأبد . وطوال حياتي التي مضت جاهدتُ كي أبقى ، ولم أحفل بأن أكون موجودة .ما قيمة وهج شمعة ستنطفئ بعد قليل ، أمام لمعان نجم ما زال يبرق منذ ملايين الأعوام ؟ ما قيمة كل ما أنجزته في حياتي إن خَبَت ناره لأنني رحلت عنها ، ولم أعد أنفخ عليها كي تتقد فيتذكرني الآخرون بين وقت وآخر ؟ ما قيمة أن أكون موجودة في مقابل أن أكون باقية ؟

- 15 -

إنني أكبر ، و أنت معي . ظننت كثيرًا أنّني سأقطعُ هذا الدرب وحيدة ، وأعددت نفسي لذلك ؛ لكنك جئت في اللحظة التي ناسبت مجيئك . لم أنتظركَ ، ولم تتوقّعني ، وقد تقاطع دربانا في اللحظة التي قُدّر لهما أن يتقاطعا فيها فأفضيا إلى درب واحدٍ ، نمضي فيه معًا . أحيانًا ، عندما أفكرُ في الأمر بطريقتي التي تعرفها ، أشعر بغرابة تجاه فكرة أنّني : تزوجتك ،لغرابتي وليس لغرابة الفكرة نفسها ، ولا لغرابتك ؛ لكنّ الفكرة تغدو مقبولة و مبهجة عندما ألتفتُ فألمح وجهك . أفكّر في أنّك تنظر إليّ فترى ما أنا عليه ، فلا تجهد نفسك كي تغيّره ، ولا تجهد نفسك كذلك كي تحتمل غرابة طباعي ، و مخاوفي ، وقلقي ، وميلي إلى تعقيد الحياة ، أنت تتقبّلها فحسب ، وقد تبسطها أمامي في مرّات ، كي تجعلني أدرك أنّك تدرك ، وأنّ كل ما عليَّ أن أفعله هو أن أثق بك ، بي ، بنا معًا أكثر ممّا أفعل . إنّني أكبر ، وأنتَ معي ، أقول لكَ بنزق : " أشعر بالفراغ " فتقول بهدوء : " اكتبي " ؛ فأحسُّ أن ليس هناك ما هو أكثر أمانًا من أن تعرفني إلى هذا الحد و أن تكون معي .

- 16 -

إنّني أكبر ،و أنأى عن كثير من ذكريات صباي ، أراها وهي تشحب ببطء كأن لم تكن ؛ غير أنّ بعضها ما زال حاضرًا كما لو حدث أمس ، ربما لأنّه أشدَّ حفرًا في الأعماق من أن يُنسى ! في الخامسة عشرة – مثلًا – كتبتُ مذكّراتٍ مزّقتها فيما بعد ، لأنّني أردتُ أن أوثّق ما عرفته عن نفسي و عن الحياة خلال تلك الأعوام فحسب . وعدتُ نفسي بأن أبقيها حتى أبلغ الثلاثين ، كي أقرأها فأرى ما الذي بقي ، و ما الذي سحقه مرور الوقت . لكنّني مزّقتها قبل أن أبلغ ثلاثيني ، وقبل أن أعيَ أنّي أمزّق – إذ أمزّق – أشياء منّي .و ها أنذي على أبواب الأربعين ، أكتب كي أعيَ ، و أعي كي أكتب ، فهل ستنجو أوراقي هذه ؟ أم أنّ التلف سيطولها هي أيضًا ؟ يا الله ! ما أبعد الشُّقّة بين الخامسة عشرة و الأربعين ! ما أبعد ما كُنته حينها عمّا أنا عليه الآن ، لكنّها كلُّها حياتي إن كتبتُ وعيي بها أو لم أكتبه . لقد عشتها ولا مفرّ لي من أن أعيشها ، وكل ما أحاول أن أفعله هو أن أجعلها أقلّ خفّةً كي لا تُنسى .

- 17 -

إنّني أكبر ، و ازداد تشبُّثًا بأن لا أعرف ما قد تخبئه لي الحياة . لا أسعى إلى ذلك ، ولا أظنّني سأفعل . في أحد شوارع القاهرة فررتُ من بصّارة اعترضتني كي تقرأ لي – كما قالت – بختي . لاحقتني وهي تقول : " وشّك بيتكلّم ، سيبيني أقرأ لك البخت " ، فابتعدت عنها وأنا أردد : " ما أبغى " . أفزع من فكرة أن أعرفَ ما قد يحدث لي ، وكلّما فكرتُ في الأمر بدت لي معرفةً مبهظةً : ـن أحيا أمرًا ما مرّتين ، فرحًا كان أم أسًى . و أنا أحبُّ أن أمضي في الدَّرب فاستكشف ما قد يُفضي إليه ، لا أن أتوقّى شيئًا فيه ، أو أنتظر وصولي إليه . ما جدوى أن أعرفَ ما لن يمكنني تغييره ، وفوق ذلك فإنَّ معرفته قد تغيّرني ؟ أفهم توقَ الإنسان إلى أن يعرف ، لكنّ في المقابل أفهم خوفي من أن أعرف قبل الأوان ؛ لذا أختار أن أخافَ على أن تنهكني معرفةُ كيف أنّ حياتي ستتغير في لحظة ما . أجل سينهكني أن أعرف ، وأن أنتظر أن يحدثَ ما عرفته ، و أن يحدث ، أو أن لا يحد. يا للخيارة الفادحة ّ ألا يكفي أن نخسر دون أن نعرف ؟

- 18 -

إنّني أكبر ، وأنغمسُ أكثر من ذي قبل في تأمُّل حياتي ، وكلّ الحيوات التي تقاطعت وتتقاطع معها . تدهشني فكرة تقاطع الحيوات والمصائر هذه . يدهشني أن يتقاطع معي أناس في كل مكان ، في الشوارع ، في الأسواق ، في أمكنة العمل أو الدراسة ، أو المستشفيات ، أو المطارات أو غيرها . و أفكِّر كثيرًا في كيف أنّ كل هذه الحيوات تتقاطع بكلّ هذه الدقة ، و هذا التقدير ؟ و أتساءل : عندما أتتقاطعُ مع أحدهم فهل يعني ذلك أنّ قدر أحدنا سببٌ في خلق قدرِ الآخر ؟ و أيّ القدرين أسبق إن كان الأمر كذلك أم أنّ الأقدار تتوازى في خلقها ثم تتقاطعُ في حدوثها ؟ و أفكِّر في كيف أنَّ ملايين الحيوات ظلّت تتقاطع طوال آمادٍ مضتْ ، فيقود تقاطعها إلى أوضاع جديدة ، فيما تكتفي حيوات أخرى بالعبور فحسب مثلما يحدث في صالة انتظار مطارٍ ما ، تتقاطع لأنّه قدِّر لها أن تتقاطع ، من قبل أن يُخلقَ الخلف بِـــ : (٥٠٠٠٠) عامٍ ! أحيانًا أتساءل : كيفَ خطرتْ لله – جل شأنه – فكرة : الحياة ؟

- 19 –

إنّني أكبر ، بوعي مُمِضّ ، يجعل من الحياة أحيانًا جحيمًا صغرى ، لكنّي لا أملك أن أتخلّص منه ، ولا أريد أن أحيا دونه ، وقد مرَّ وقتٌ لم أدرِ فيه – لطول ما تعذّبتُ – ما إذا كان وعيي نعمةٌ أم ابتلاء . وقد كان و سيظلُّ – بالنسبة لي – أمرًا ثقيلًا أن أعيَ حياتي ، أن لا أجتاز أحداثها دون أن أتأمّلها ، كي أفهمَ لمَ كان أمرٌ ، و لمَ لمْ يكن آخر . و أحيانًا ، حين يكون الأمر عصيًّا على الفهم – وغالبًا ما كان كذلك – أبتهل إلى الله ألّا يرزأني بوعيي أكثر من هذا الرُّزء ، و أبكي ؛ لأنّي لا أملك غير أن أبكي أو أتبلّد ، وقد عجزتُ أن أتبلّد في مواجهة تهتّك الحياة . عجزتُ عن أن لا أشعر في مرّاتٍ كثيرة بأنّني في المكان و الزمان الخاطئين : ليس لأنّني أفضل أو أحسن ، بل لأنّ طباعي و أفكاري وطريقتي في أن أحيا حياتي لا تناسب هذا المكان ، ولا هذه اللحظة العصيّة من الزمان . إنّني أكبر ، وأحسد كلّ من نجا من شَرك الوعي الحاد .

- 20 –

إنَّني أكبر ، وأغدو أكثر هشاشة من قبل . ويؤذيني أحيانًا أن أشعر أنَّها هشاشة منْ يعي ويعرف أكثر مما يجب ، لا هشاشة من لا يجرؤ ، وإن كان يمكن مداواة الأخيرة ، أو حتى تجاوزها ، فإنَّ الأولى تغدو – مع الوقت – ملمحًا مثل بقية الملامح ، يشيخُ لكنَّه لا يمحي ؛ و أنا ألمح هشاشتي طوال الوقت ، وأحاول أن أتآلف مع فكرة أنَّها هنا ، وأنَّ عليَّ أنّ أداريها كما لو كانت عطبًا . أليستِ الهشاشة عطبًا في الروح ؟ عطبٌ لا يُصلحه أن نفهمه ؛ لأنَّ فهم الهشاشة لا يجعلها أخفَّ وطأة ، ولا أن ندرأ أسبابه ؛ لأنَّ أسبابه ممّا لا يمكن درؤه ، ولا أن نتجاهله لأن أحدًا لا يستطيع أن يتجاهل لون عينيه أو شكل يديه أو ندبة على ساقه . إنَّها هنا ، ورغم أنّها تفضي إلى الخفّة ، فإن الهشاشة ثقيلة وملزمة ، ويمكن أن تجعل من حدثٍ عابر تجربةً غير سارّةٍ . إنَّها هنا ولن يحدثَ ما يجعلها غير موجودة مهما أغمضتُ عينيّ ، وتمنيتُ ذلك ؛ لأنّ كل مايحدث حولي – كما يبدو – يجعلها تتأكد يومًا بعد آخر . إنّني أكبر ، وهشاشتي كذلك تكبر معي .

- 21 -

إنَّني أكبر ، وأميل إلى الوحدة أكثر من ذي قبل ، و أفكر دائمًا في أنَّني كنتُ سأكون من أهل الصَّوامع والبيَع ، لو أنَّ الزمان تقدّم بي . الوحدة لا تؤذيني ، و معها يمكن أن أعيَ هشاشتي فلا أحزن ، لأنِّي سأكون غير مُضطرَّة لتبريرها ، وغير مُضطرَّة للاعتذار عنها ، وغير مُضطرَّة حتى لأن أرتبك إزاء ردّ فعل الآخرين تجاهها . في حياتي اليوميّة يمكن لي أن أكون مع الناس لبعض الوقت ، لكنَّ الذي يُنهك روحي أن أكون مع الناس طوال الوقت ، أو لفترات طويلة . طول الحضور يجعل المرء – بالنسبة لي – باهتًا مثل قماشة تُرِكَتْ تحت الشمس طويلًا ، فغابت بهجة ألوانها ، وغاب حتى وقع ملمسها الحقيقي ، ولم تعد أكثر من شيء كان ، وما أكثر الناس التي كانت ! وأنا لا أحبُّ أن أكون سهلًا مفتوحًا ، وأحبُّ كثيرًا أن أكون الغابة التي يزورها المرء بين وقتٍ وآخر ، فيجد في كلّ مرّة جديدًا . تجربة الحياة كلّها – كما أرى – تكّمن في التآلف مع الوحدة ، لأنَّنا نخوض حيواتنا فُرادى مذ نولد وحتى نموت . وأعظم تجاربنا تجارب تتبدّى فيها الوحدة بأوضح صورها مهما شاركنا فيها الآخرون : الولادة ، و المرض ، والخوف ، والفرح ، والألم ، والحمل ، و . . . الموت . الوحدة إذن ، مآلنا الأخير .

- 22 -

إنَّني أكبر ، و أنفِق جُلَّ وقتي كي أفهم الزمن ، فلا أفهمه ؛ لذا أشعر أنَّه عدوّي الخفي الذي يضرب دون أن يكون باستطاعتي دَرْءُ ضرباته عنِّي . لا أعرف كيف يمضي ؟ و لِمَ يمضي ؟ وكيف أنَّنا نحيا فيه و نعجز ن أن ندركه كما ينبغي له ؟ أهو شيء يمُرنا و نمرُّه ، أم حالٌ تعترينا ؟ و إذا مضى فإلى أينَ نمضي ؟ أين تذهب كلّ أعوامنا التي تغادرنا ؟ أين تذهب ؟ و لِمَ لا يمكن أن نحتفظ بها في مكان ما كثيابنا و أشيائنا العتيقة ؟ إنَّني أكبر ، ويوجعني أن أتساءل طوال الوقت : أين تذهب الأيام الجميلة ؟ كيفَ تبدأ ؟ وكيفَ تجفُّ كأن لم تَغْنَ بالأمس ؟ و كيف يمضُّني الحنين إذ يعيدني إليها ولا يعيدها إليّ ؟ أحيانًا أمدُّ يدي – في غمرة انفعالي – فأتحسسني كي أصدق أنّي ما زلت هنا ، حتى وإن ذهبت أيّامي الجميلة ، وأفكر في أنّ أيامًا جميلة أخرى ستأتي – ربما – وستذهب دوني ، و أنّها ستظل دائمًا شيئًا قريبًا بقدر ما هو عصيّ على إدراكي معهما حاولتُ ؛ فأتألم .

- 23 -

إنَّني أكبر ، وتكبر معي صداقاتي كذلك . يكبر بعضها كي يبقى ، فيما يكبر قليلٌ منها كي يذبل ؛ لكن بمَ أشعر حينما تذبل صداقةٌ قديمةٌ أمام عينيّ ، دون أن يكون لديَّ ما أفعله أو أقوله ؟ بمَ أشعر حينما أراها – الصداقة – و هي تتحلَّل يومًا بعد يوم ، ليس بسبب سوء أحدٍ أو شيءٍ ، بل لأنَّها لم تعد تملك ما يبقيها لأمدٍ أطول ؟ لقد كَبُرت إلى الحدِّ الذي ينبغي معه أن تموت ، ونَضَجت إلى الحدِّ الذي بدأت تتغضن معه ، و استوت على عرشها إلى الحدِّ الذي لم يعد يمكنها معه أن تنحني – و لو قليلًا – كي تمرَّ عليها الأيام المليئة بانشغالاتي ، و مللي ، وشكّي ، و خيباتي . أحيانًا تبدو لعينيّ عندما أتأملها كملكٍ مخلوع ، يجلس كلّ يوم على كرسيّه ، ولا يفكّر في شيء سوى

أنّه الملك ، ولا يرى شيئًا سوى أنّه الملك ؛ رغم أن الحياة – كل الحياة – قد تغيرتْ ، ولم يعد يحكمها – في داخلي على الأقل – ملوكٌ أو حفاةٌ ؛ لم يعد يحكمها سوى الشكّ المتواصل ، والرغبة الممضّة – التي لا يفهمها إلّا قلّة – بالنأي عن كل شيء و الاكتفاء بالصمت .

- 24 -

إنَّني أكبر ، وأحاول قدر ما يسعني أن أُدجّن مخاوفي التي عجزتُ عن أن أبرأ منها . مخاوفي الصغيرة والعظيمة ، مخاوفي المضحكة أحيانًا ، وغير المفهومة ، وربما غير المبرّرة أحيانًا أخرى ، مثل : أن أخاف من الأدوية التي لا يصفها طبيب ، وأن أخاف من الأمكنة المرتفعة غير المسيّجة ، وأن أخاف من السّلالم الكهربائية ، و أن أخاف من أن تسرع بي سيّارةٌ ، وأن أخاف من الأمكنة المفتوحة الخالية ، وأن أخاف من اللحظة التي تهبط فيها طائرة تقلّني وتلك التي تصعد فيها ، وأن أخاف من حدّة وعيي التي قد تقودني إلى الجنون ، وأن أخاف من أن أفكر في كل احتمالات الحياة التي تفوتني كل يوم بسبب غفلتي أو جهلي أو كسلي ، وأن أخاف من أن ... أن تموت عنّي بغتةً ، قبل أن أشبعَ و قبل أن تكتبَ عنّي – كما أخبرتني – و لو صفحة واحدة ، وقبل أن ألتفت مرّة أخيرة إلى حياتي – كل حياتي التي مضت – و أقول ، دون تشفٍّ أو حقدٍ و أنا أحيا سعادتي معك : أنّي اكتشفتُ – متأخرة مثلما يحدثُ دائمًا – أنَّ السعادة هي ما كانت تنقصني ، وأنّي أستحقها ، أستحقها ، أستحقها ، حتى لو نغصها الخوف والوعي .

- 25 -

إنَّني أكبر ، و أتخيّل أحيانًا أنّ حياتي– كلّ حياتي – مشهدٌ قصير في فيلمٍ طويل ، تعرضه صالة عرض شبه خيالية ، ويشاهده إنسانٌ وحيدٌ مرَّة ثم يمضي عنه . مشهدٌ يبدأ وينتهي في دقائق ، لكنَّه يبقى في الذهن طويلًا ، لأنَّ قيمته ليست في امتداده ؛ بل فيما يقترحه ، وفي المعنى الذي يحمله . مشهدٌ لا حوار فيه ؛ لأنّ الكلمات تقصر عن أن تحكيه ، أو لأنَّها – بصورة ما – تفسده . مشهدٌ أعيد تصويره مرّات و مرّات قبل أن يقول المخرج : (cut) للمرّة الأخيرة ، موقنًا أن ليس ثمَّ أداءٌ – مهما برع صاحبه – يمكن أن يقدّم المشهد كما يراه في ذهنه . مشهد مثل : مشهد إديت بياف (Edith Piaf) في فيلم : (La Mome) ، وهي طفلة ، تجلس إلى طاولة و تأكل من طبقٍ أمامها ، فيما يدخل عليها أبوها ، ثمَّ يستل دميةً من تحت سترته ؛ كي يقدمها لها باسمًا . دميّة منهكة لطفلة أشدّ إنهاكًا تبتسم لخيرٍ ضئيل ، خيرٍ غير متوقع ، خيرٍ غير مشروط ، يحدث مرّة واحدة ؛ فيما يبقى إلى الأبد .

- 26 –

إنَّني أكبر ، وأدافعُ الشك الممض أكثر من ذي قبل . أحيانًا – عندما أتأمل حياتي – تبدو لي شكًّا يتناسل إثر شك ، أما اليقين فيها فيبدو لي متضائلًا ، ولا أخاف من شيءٍ قدر خوفي من يومٍ أفيق فيه وقد ابتلعني الشكُّ ؛ ستكون خسارتي فادحة حينئذٍ ، ولن يعصمني من الله شيء . يوجعني شكّي في أشياء كثيرة من حولي ، يوجعني شكّي في فكرة الحياة نفسها ، وجدواها ، غير أن ما من شك يهيض روحي مثل شكي في أن أكون قد اخترتُ حقًا ، في العماء الأول ، وقبل أن أُخلق بآلاف الأعوام ، اخترتُ هذا الرُّزء : أن أكون إنسانًا ! كيف لمن أضناه الوعي بقدر ما أضناني أن يختار أن يُوجد ، و أن يحمل أمانة ؟ كيف لمن وعى فداحة الخسارة أن يختارها ؟ وما الشيء الذي أدركته وقتها فجعل الخيار سهلًا ، ثُمَّ لمَّا خُلقت غاب عن إدراكي و خلّف لي شكّي و حيرتي ؟ أخاف كثيرًا من فكرة أنّي اخترتُ و أنا أعي رعبي من شكّي ، ورعبي من الخزي إن ابتلعني الشك في مرّة ، وابتلع معي يقينان أبتهل إلى الله دائمًا أن لا يحرمني منهما : يقيني بعدله ، ويقيني برحمته . إن ضاعا منّي ، فإن حياتي كلّها ستؤول إلى خراب عظيم و مخزٍ لن يُقيله شيء ، ولن يغفره شيء .

- 27 -

إنَّني أكبر ، وأفكر في أنَّني بشرٌ مثلومُ ، وأنّي في حياتي أحبُّ الأشياء و الناس المثلومة ؛ وكلُّ الأشياء و الناس – ما خلا الله سبحانه – مثلومة . أفكّر كذلك في أنّني ، كما يقول درويش : " لن أكون كما أريد . و لن أحبّ الأرض أكثر " . و أعي دائمًا أنَّ أشياء كثيرة فاتتني ، وستفوتني ، و أنّي أقلّ مما أريد بسبب فواتها عليَّ ، ويشعرني ذلك بالحزن أحيانًا ، ورغم ذلك فإنّي أواصل ؛ لأنّي لا أستطيع غير أن أواصل بما أملكه ، وبما أنتظر أن أبلغه ، بقصور حواسيّ ، بأثلامِ وعيي ، بجسدي الذي هو – بالنسبة لوعيي – ليس أكثر من فخٍّ منصوب لي طوال الوقت ، وقد يعوقني بلوغ ما أحلم به في مرات . تؤرقني فكرة أنّي " محدودة " فيما الحياة واسعة وغامضة و تنتظر من يغامر . تؤرقني كذلك فكرة أنَّ ما أملكه أقلّ دائمًا ممّا يتطلّبه الأمر ، وأنّ ما أريده عصيٌّ ، ويتطلّب أن أغادر الحال الإنسانيّة التي أنا عليها ؛ كي أبلغه ، وأفهم حينها كيف أنّ الحياة – كلّ الحياة كما أراها – كذبةُ وقحةٌ و طويلة ، ورغم ذلك نتشبث بها ونتمنى أن تدوم إلى الأبد .

- 28 -

إنَّني أكبر ، وهذه هي حياتي : طويلة وثقيلة وغير مكتملة لأنّي لم أمت بعد ، لكنّها ناضجة . ربّما كانت سيئة أحيانًا ، لكنّ ذلك لا يعني أبدًا أنَّني كنتُ سيئة . كنتُ أحاول ، وقد فشلتُ في مرّات و سأفشل ، ونجحت مرّات و سأنجح ، ولعل أكثر ما أفكر فيه الآن أنّني دافعتُ الأذى ، لكنّني حاولت جاهدةً أن لا أُدافعه بالأذى . أتأملُ وجهي ، أتأمل عينيّ خاصة ؛ فأشعر بوخزة من عرف ما لا ينبغي له أن يعرفه ، لكن لا مناص من أن أمضي ، سواءٌ عرفت أم لم أعرف . وهذه الكتابة ليست في مديح ما مضى ، بل لفهم معناه ، ولن يفهم معناه سواي . لن يفهمه أحدٌ كما فهمته و سأفهمه أنا ، لأنَّ أحدًا لم يعشه سواي بكلّ ما فيه من إنجاز وفضل وفرح و أسى و عفو وغضب . أربعون ! لم أبلغها ، لكنّي أوشك على ذلك ، وأنا أردد " ما أطولها حياتي ! " . نحنُ لا نبذل مجهودًا كي نبلغ عمرًا ما ، بل نبلغه لأنَّنا نبلغه و هذا هو ما يحدث ؛ لكنَّنا مسؤولون عن أن نبلغه بما يليق به ، أو على الأقل بذخيرة تليق به ، فهل ما أملك من الذخيرة ما يكفي ؟ هل شبعت من حياتي ؟ هل فهمت تعقيدها و حساسيتي إزاء هذا التعقيد ؟ إنَّني أكبر ، لكن هل نضجتُ بالقدر الذي يستحقه عمري ؟ لا أدري ، كلّ ما أعرفه الآن أنَّها حياتي ، وذاك ما حدثْ .

(قالَ فمَا بالُ القُرُونِ الأولَى

قالَ عِلمُهَا عِنْدَ رَبِي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبي و لا يَنْسَى)

[طه : ٥١ – ٥٢]